# النّـثر الجاهليّ

**ينقسم الكلام الّذي وصل إلينا منسوباً إلى الجاهليّين إلى شعرٍ ونثر:**

**فالشّعر في الأصل اللُّغَويّ مأخوذٌ من قولهم: شَعَر إذا فَطِنَ وعَلِمَ، وفي الاصطلاح: هو الكلام الموزون المقفّى من أوّله إلى آخره، والّذي له معنًى شعريّ وأسلوب شعريّ وقصَدَ إليه الشّاعرُ قَصْدًا؛ لأنّ الشّاعرَ علِمَ ذلك كلَّه وفطن له.**

**والنّثر مأخوذٌ في الأصل اللُّغَويّ مِنْ نَثْرِ الشّيء، وهو رَمْيُهُ مُتَفَرِّقًا؛ تقول: نثرتُ الحبَّ ونحوَه إذا رميتَهُ متفرّقًا؛ فهذا الأصلُ اللُّغَويّ يدلُّ على أنّ النّثرَ هُوَ الكلام الذي يتكلّم به النّاسُ عامّةً خاليًا من الوزنِ والنّظامِ الموسيقيّ، ولكنْ عند الحديث عن النّثر في الأدب يُعْنَي النّثر الّذي تعمّد صاحبُه تجويدَه وبذل فيه جُهدًا من حيثُ صياغَتُهُ ولُغَتُهُ ووسائلُه الفنّيّةُ للتّأثير في السّامعين.**

**ويمكنُ تصنيفُ ما وصل إلَيْنَا عن الجاهليّين من هذا النّثر في أنواع عدَّة: الخطابة، وسَجْع الكُهّان، والوصايا، والحِكَم والأمثال، وهنالك الرسائل والعُهود والأحلاف.**

ولا بُدَّ قبلَ الوقوفِ عند أنواع النّثر الجاهليّ من التّنبيه على أمرَيْنِ تَناوَلَهُما بعضُ دارسي النّثر الجاهليّ: الأوّل حول أسبقيّة الشّعر والنّثر، إذ يرى بعضُهم أنّ النّثر أسبق، ويخالفهم آخرون، وكلٌّ يأتي بحُجَجٍ يتخيّل صِحَّتَها يُؤَيِّدُ بها رأيَهُ وينقض رأي الآخر، وهي قضيّة لا تعدو أن تكونَ ضربًا من الجِدالِ الّذي لا فائدة تُرْتَجى من ورائه؛ فليس يُهِمُّ كثيرًا أن يكون النّثر أسبق أو الشّعر، بلِ المُهِمُّ هو هذا الّذي وصل إلينا من الشّعر والنّثر وكلّ ما يتعلّق بهما؛ ولذلك نضربُ صَفْحًا عن هذا الأمر.

والأمر الثّاني هو توثيق النّثر الجاهليّ، إذ لا يكاد مُعْظَمُ دارسي الأدب الجاهليّ يثقونَ إلاّ بالقليل النّادرِ من هذا النّثر، وليس لهم حُجَّةٌ في ذلك إلاّ أنّ هذا النّثر لم يصل إلينا مُدوّنًا من الجاهليّة، وإنّما دُوِّنَ بعدَ زَمَن، وأنّ حِفظ النّثر ليس سهلاً كحفظ الشّعر، ثمّ يَعْطِفُون على هذا التّشكيكِ بالقول: «**إنّ هذا الّذي وصل إلينا على أنّه نثرٌ جاهليّ إنّما يُصَوِّرُ لنا مادّةَ ذلك النّثر وروحَهُ وطبيعتَه وكثيرًا مِنَ مَلامِحِهِ، لكنْ لا بصورةٍ دقيقة، وإنّما بصورةٍ عامّة؛ لأنّ هذا النّثر الّذي وصل إلينا نَحَلَهُ أُناسٌ بعد الإسلام، ولكنْ لا بُدَّ أنّهم كانوا يَقِيسُون على نماذجَ وأساليبَ جاهليّة**».

ولا داعِيَ للوُقُوف عند هذا الزّعم طويلاً، لأنّ القضايا الّتي عُولِجَتْ في توثيق الشّعر الجاهليّ من كتابةٍ وروايةٍ وتدوينٍ ونَحْلٍ تنطبق على النّثر الجاهليّ نفسِه، فما وصل إلينا من هذا النّثر عن رواةٍ ثقاتٍ يكون إنكارُهُ والتّشكيك فيه ضَرْبًا مِنَ العَبَثِ الّذي لا ينتهي؛ ثمّ إذا صحّ أنّهم وضعوا هذا النّثر على نماذجَ وأساليبَ جاهليّةٍ كانت لديهم أفليس من الأجدر أن تَصِلَ إلينا تلك النّماذجُ الّتي كانوا يَقِيسُونَ عليها؟!

وربّما احتجَّ بعضُهم لهذا التّشكيكِ باختلافِ رِوايةِ بعضِ ذلك النّثر؛ وليس ذلك بحُجَّةٍ، لأنّ الاختلاف ممّا يقع في الشّعرِ وفي النّثرِ، لأسبابٍ تتعلّق بالقائل أحيانًا وبالنّاقل أحيانًا وبمصدر النّاقل أو اختلافِ مصدر النّاقلين أحيانًا أخرى؛ ولكنّ ذلك كلَّه لا يُخَوِّلُ أحَداً الشّكّ في صحّةِ أصلِ هذه الآثار.

واحتجّ بعضُهم بأنّ هناك مَنْ لم يتورَّعْ عن وَضْعِ الحديث على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فالأَحْرى ألاّ يتورّعَ عن وَضْعِ الخُطَبِ ونحوِها على خطباء الجاهليّة، وهذه حُجَّةٌ واهيَةٌ جِدًّا، لأنّ أسبابَ وَضْعِ الحديثِ ودَواعِيَه كثيرةٌ جدًّا دَرَسَها علماءُ الحديث، بخلاف دَواعي الوضْعِ على خطباء الجاهليّة؛ ولا أدَلَّ على ذلك مِنْ أنّ ما وصل إلينا من خُطَبهم وسائرِ نثرهم لا يُعَدُّ شيئًا إذا ما قِيْسَ بما وصل إلينا من شعر الجاهليّة، فلا يكاد المرْءُ يجد لأشهر خطبائهم خُطَبًا تزيد على أصابعِ اليَدِ الواحدة، وهي خُطَبٌ قصيرةٌ في الغالب، ليس من الصّعب حفظُها وتَناقُلُها.

وكلُّ هذا التّشكيك الّذي دَأَبَ عليه الدّارسونَ يَرْجِعُ إلى افتراضاتٍ وأوهامٍ وتخيّلاتٍ تحتاج إلى الدّليل العلميّ الملموس المُقْنِع؛ ولذلك يجبُ الوقوفُ من هذا النّثر موقفَ القاضي العادل الّذي يُحاكِمُ مُتَّهمًا ما، وإلاّ حَكَمَ كلُّ امرئٍ بحَسَبِ هَواه وظُنونه، وإنّ الظّنّ لا يُغْني مِنَ الحقِّ شيئًا.

وسيكون الكلامُ فيما يأتي على أربعة أنواع رئيسة من النّثر الجاهليّ، هي: الخَطابة، وسَجْع الكُهّان، والوصايا، والحِكَم والأمثال.

## أوّلاً: الخَطابة الجاهليّة

### ١- دواعي ازدهار الخَطابة في الجاهليّة:

كانت حياة العرب في الجاهليّة، بأوجه النّشاط المختلفة فيها من حربٍ وصُلْح، ومنافراتٍ ومفاخَراتٍ، ووفادة على الملوك، ومواسمَ للتّجارة والحجّ، ومناسباتٍ اجتماعيةٍ مختلفة، تُؤهِّل الجاهليّين لأَنْ يُهيِّئوا لهذه الأحوال ما يناسبُها مِن خُطَبٍ تُبَلِّغُهم ما يُريدون، وينهضُ لهذه الخُطَبِ أُناسٌ ملكوا أَعِنَّةَ البيانِ بما فُطِروا عليه من فصاحةٍ وبديهةٍ وذَلاقةِ لِسان، حتّى إنّ الجاحظَ سحَبَ هذا الوصفَ على العربِ عامّةً حينَ قال: «**وكلُّ شيءٍ للعربِ فإنّما هُوَ بديهةٌ وارتجال، وكأنّه إلهامٌ، وليس هناكَ معاناةٌ ولا مُكابَدةٌ ولا إجالةُ فِكرٍ ولا استعانة، وإنّما هو أنْ يَصْرِفَ وَهْمَهُ إلى الكلام ... عندَ المُقارَعَةِ أوِ المُناقَلَةِ أو عند صِراعٍ أو في حرب، فما هو إلاّ أنْ يصرِفَ وَهْمَهُ إلى جُمْلَةِ المَذْهَبِ وإلى العَمودِ الّذي إليه يَقْصِدُ، فتأتيه المعاني أَرْسالاً، وتَنْثالُ عليه الألفاظُ انثيالاً ...** »، وهذه مبالغةٌ مِن الجاحظ، لأنّ في العرَبِ العَيِيَّ والفصيح، مثلما أنّ فيهم الجريءَ والجبان، ولولا وجودُ الحَصَرِ والعِيِّ مع الفصاحةِ والبَيانِ، لَما وَصفُوا ذلك كلَّه في أشعارهم.

### ٢- أشهر خطبائهم:

اشتُهِر بالخطابةِ في كلِّ قبيلةٍ عددٌ من هؤلاء الفصحاء، **ففي قريشٍ** كانَ هاشمُ بنُ عبد مَنافٍ، وابنُه عبد المطّلب، وأميّة بن عبد شمس بن عبد مَناف، وابنُه حَرْبُ بن أميّة، ونُفَيْلُ بن عبد العزّى، وعُتْبَةُ بن رَبيعة بن عبد شمس، وسُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو العامريّ القرشيّ، وغيرهم، **وفي الخَزْرَجِ**: قيسُ ابنُ شمّاس، وابنُه ثابتُ بن قيس خطيبُ النّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم، **وفي الأوسِ**: سعدُ بن مُعاذ، **وفي تميم**: أَكْثَمُ بن صَيْفيّ، وعُطارِدُ بنُ حاجِبِ بنِ زُرارة، وقيس بن عاصم، **وفي مَذْحِج**: الأَفْوَه الأَوْديّ، **وفي إياد**: قُسُّ بنُ ساعدة، **وفي شيبانَ**: هانئُ بنُ قَبِيْصَة، **وفي عَدْوان**: عامر بن الظَّرِب؛ وغيرُ هؤلاء كثيرٌ في كلّ قبيلة.

### ٣- مكانةُ الخَطيب:

كانت القبائل محتاجةً إلى الخُطباء حاجتَها إلى الشّعراء، ليقوموا في المقاماتِ المختلفة؛ على أنّ الشّاعرَ كان مقدَّمًا على الخطيبِ عند قدماء الجاهليّين، ولكنّ الأواخرَ منهم قدّموا الخطيب، وقد علّل أبو عمرو بن العلاءِ ذلك بقوله: «**كان الشّاعرُ يُقَدَّم على الخطيب، لِفَرْطِ حاجتهم إلى الشّعر الّذي يُقَيِّدُ عليهم مآثِرَهم، ويُفَخِّمُ شأنَهم، ويُهَوِّلُ على عدوِّهم ومَنْ غزاهم، ويُهَيِّبُ مِنْ فرسانهم، ويُخَوِّفُ مِن كَثْرَةِ عددهم، ويهابُهم شاعرُ غيرِهم فيراقبُ شاعرَهم؛ فلمّا كثر الشّعر والشُّعراء، واتّخذوا الشّعرَ مَكْسَبَةً، ورحلوا إلى السُّوقَةِ، وتسرَّعوا إلى أعراضِ النّاس، صارَ الخطيبُ عندَهم فوقَ الشّاعر**»؛ وفي كلام أبي عمرٍو إشارةٌ خفيّةٌ إلى أنّ الخطباء كانوا في العادة مِنْ أشراف النّاس

وسادَتِهم، على خلافِ الشّعراء، فإنّ فيهم مَنْ لم يكن كذلك، فلجأ إلى التّكسّب بالشّعر والرّحلة لِمَدْحِ كلّ مَنْ يُعطيه.

**٤ – هَيْئَةُ الخطيب وصفاته:**

كان للخطباء تقاليدُ وهيئاتٌ يحرِصُون عليها، وصفاتٌ لا غنى عنها؛ فكان مِنَ التّقليد أنْ يَلُوثَ الخطيبُ عِمامَتَهُ على رأسه، لأنّها مِن كمالِ هَيْئَةِ الرّجلِ وجَمالِهِ، وقد أُثِرَ عن عمرَ بنِ الخَطّاب رضي الله عنه قولُهُ: «**العَمائمُ تِيجان العرب**»، وعن عليِّ بنِ أَبي طالِبٍ رضي الله عنه: «**جَمالُ الرّجلِ في عِمَّتِهِ**»، وكان الخطيبُ يُمْسِكُ بيده عَصًا أو مِخْصَرَةً أو رُمحًا أو قَوْسًا يتّكئ عليها ويُشيرُ بها، فيرفعُها ويضعُها مُعَزِّزاً بها كلامَه، وقد عابَ عليهمُ الشُّعوبيُّونَ ذلك بعد الإسلام لجهلِهم سَبَبَهُ؛ فردّ عليهم الجاحظُ بقوله: «**إنّ حَمْلَ العصا والمِخْصَرَةِ دليلٌ على التّأهُّبِ للخُطْبَةِ والتّهيُّؤِ للإطنابِ والإطالة، وذلك شيءٌ خاصٌّ في خطباء العرب، ومقصورٌ عليهم، ومنسوبٌ إليهم، حتّى إنّهم لَيَذْهَبون في حوائجِهم والمَخاصِرُ بأيديهم، إلْفًا لها وتوقّعًا لبعضِ ما يُوجِبُ حَمْلَها والإشارةَ بها**"، ومِن عادتِهم أَنْ يُشْرِفَ الخطيبُ على النّاسِ حتّى يَرَوْهُ، فيستحوذَ على قلوبهم، فإمّا أن يصعَدَ مرتفَعًا مِنَ الأرض، وإمّا أن يركب على راحلته، فيَخْطُبَ بالنّاسِ وهو يرفع يدَهُ ويَضَعُها مُستَعِينًا بما يُمْسِكُه مِن عصًا أو رُمْحٍ أو قَوْسٍ.

ومن صفات الخطيب الّتي لا بدَّ منها أن يكونَ ثابتَ القلبِ قليلَ التّلفُّتِ، حاضرَ البَدِيهة، لا يتهيّبُ النّاسَ عندما يَرْمُونَ بأبصارهم إليه ويُقْبِلونَ عليه؛ ولا بدّ له أن يكونَ جَهيرَ الصّوت، سليمَ النُّطْقِ، كثيرَ الرِّيْق؛ ولذلك عابوا التَّنَحْنُحَ والارتعاشَ والسُّعالَ والعَبَثَ باللِّحْيَة وتَصَبُّبَ العَرَقِ، لأنّه دليلٌ على تَهَيُّبِ النّاسِ أو العِيّ؛ وقد وصفوا تلك المحاسنَ وهذه المعايِبَ في أشعارٍ ساقها الجاحظ في (البيان والتّبيين).